

التربية والتعليم وماذا كسبنا من السيكولوجية الحديثة

وبما كان الكتاب الصغير "أحاديث إلى المعلمين" الذي ألفه وليم جيمس قبل نحو أربعين سنة أول المحاولات المباشرة لتطبيق المبادئ السيكولوجية الحديثة على التربية والتعليم. فإن المؤلف هنا يجرؤ على أن ينظر نظرا سيكولوجيا بكرة لعقبة المعلم والتلميذ. وهو مع المعارف القليلة التي كانت في متناوله يبحث التربية والتعليم بحثا جديدا نستطيع أن نعرف قيمته حين نقابل بينه وبين كتاب هربرت سبنسر "التربية" الذي ألفه قبل كتاب وليم جيمس بنحو عشرين سنة. وقد كان هربرت سبنسر فذا في الإحاطة بالتقدم العلمي في عصره. ولكن السيكولوجية لم تكن قد فتحت أبوابها وبسطت ميادينها إلى حوائى سنة ١٩٠٠ ولذلك نقرأ كتابه فنجس أنه قديم، في حين نحس ونحن نقرأ كتاب وليم جيمس أننا نتشم هواء جديدا وأنه قد فتح لنا كوة نطل منها على ميادين رحبة جديدة في أساليب التعليم وأخطء التربية.

والمقابلة بين هذين الكتابين تدنا على حدائء السيكولوجية واستخدام النظر السيكولوجى لأنواع النشاط الإنسانى. فأننا عند ما نجد أمثاء من الكتب التي تعالج التعليم والصناعة والتجارة والعائلة والمجتمع والجرىمة والنوع من آراوية السيكولوجية نكاد نسمى أن هذا العلم هو ابن هذا القرن وأن المقابلة التي ولد على يديها هي فرويد.

واسم فرويد يشير ألوانا مختلفة من الحماسة في الإعجاب به والتقدير له. ونحن في طور التمهيص لكثير من نظرياته التي غمرت العالم بها عبقريته السخية. وليس شك في أن الزبد سيذهب جفاء ثم يبقى بعد ذلك كثير مما يشير ويفيد.

ولم يؤلف فرويد كتابا خاصا في التربية والتعليم، ولكنه أكد القيمة الكبيرة لسنوات الطفولة الأولى وما تحمده من مركات قد تعصف بحياة الإنسان في المستقبل. فان جوهر السيكولوجية الفرويدية يخلص في أن ما تعانیه في شباننا أو كهولتنا من انحرافات إنما يرجع إلى أخطء أوقفنا فيها أولئك الذين تولوا تربيتنا في السنوات الأولى من أعمارنا. والعقل الباطن عند فرويد هو العقل الذي يرجع القهقرى إلى أيام الطفولة ويتغذى بأوهامها ومخاوفها وأمانها ويسلك السلوك الطفلى وقت الانحراف أو الزنج.

وزاد هذا التأكيد لقيمة السنين الأولى للطفولة تلميذ فرويد الذى انشق عليه وهو ادلر الذى طاج التربية معالجة سيكولوجية في ضوء التحليل النفسى أو "السيكولوجية التحليلية"

وانتفع جميع المرين بهذا الاتجاه الجديد . وأصبح للأباء والبيت والشارع قيمة جديدة في تكوين الأخلاق وقيمة الشخصية . وليس في العالم المتمدن مدرسة حديثة تهمل بحث هذه البيئة الأولى عندما تجرد زيفاً أو انحرافاً في أحد الصبيان . ومعالجة النزيع تقوم على معالجة الأخطاء التي وقعت في السنوات الخمس أو الست الأولى في حياة الصبي .

ومنهذه الحقيقة الأولى خطت التربية خطوة واسعة إلى الأمام . فأننا جميعاً نعرف الآن أن التربية يجب أن تبدأ منذ أن يولد الطفل ، وأن العادة النفسية التي يتعودها في سنه الأولى قلما ينجح في تغييرها بعد ذلك إلا بجهود عظيم . ومن ضرورة إيجاد الوسط احسن للأطفال وسط العائلة السعيدة التي لا يتشاجر فيها الآباء ، والبيت الطيب المرتب ، والاتجاهات الأخلاقية والاجتماعية الحسنة التي يأخذها الطفل من بويه ومن مسألمن في نبت من إخوة وحدم وأصدقاء وجيران . فنحن نجد مغزى جديداً في الأم التي تعيف أولادها بالنعفاريات والظلام ، بل في الأم التي تخاف لأن تخوف يعدى . ونجد مغزى جديداً في الأب الصارم الذي يخشاه ابنه فينشأ حجولاً . وانجمل هنا خوف . فهو قد ينزع الشباب ولكنه يجرم ويرتسح عندما يقبل غريباً أو يلقى رئيساً لأنه يجد في جميع هؤلاء أبا قد ضربه وقسا عليه في الصغر . ثم هذا الجبن يلزمه في أشياء أخرى فهو لا يقدم ولا يقتحم ولا يربح منه ابتكار تجزى أو صناعى يحتاج إلى الاختلاط بالناس .

وإن سنى الطفولة يعزى كثير من النزيع . فالطفل المجرم إنما قد اكتسب هذا الاتجاه من البيئة الأصلية التي نشأ فيها . فإما أنه قد عاش بين أبوين زائغين ، أو أنه قد تشنت ذهنه بانحلاف القائم بينهما حتى جعل الشارع السئ ملعبه ، ومكان اقتحامه وتجاربه الأولى في الحياة لأنه لم يجد الراحة الجسمية أو الرفاهية النفسية في البيت . وجميع الأبحاث السيكولوجية الحديثة تؤدي إلى نتيجة حاسمة هي أن البيت الحسن أساس للجمع الحسن وأنه المدرسة الأولى لتخريج الرجال وتكوين الشخصيات . ورياض الأطفال هي إحدى ثمرات السيكولوجية الحديثة التي أوضحت قيمة اللعب والأوسل به إلى استنباط ذكاء الطفل وتكشفه . فإن من العريب أن تستمتع أطفال الحيوان باللعب وتتدرب به على ما سوف تعاني في مستقبل عمرها من تجارب في حين كان المربون في العصور الماضية يعاملون الطفل كأنه رجل ، وكان اللعب يجب أن يقاطع ويبعد عن حياته . وكان التأكيد في أماليب التربية القديمة على "التأديب" وأكبر معاه هما العقاب . ولكن السيكولوجية الحديثة تكاد تقاطع العقوبة وتعمل الحب أساس التربية فالتاميد اندى يعاقب لأهنامه درسه سيعاقب ويعاقب دون أن يربح إصلاحه . ويدل الاختبار على أن المنخلفين في كل فرقة يتقون كذلك على الرغم من تكرار العقوبات . ويدل على أن العلاج يجب أن يتخذ أسلوباً آخر هو البحث عن الأسباب لهذا التحلف . فقد يرجع إلى نقص

وراثي في الذكاء أو إلى أن التلميذ يكره معلمه وينطوى على عناد ومعاكسة لكل ما يليقه عليه من شرح أو بيان .

وبحث الذكاء من الأبحاث الجديدة التي لا تزال عرضة للناقشة الحرة . فهناك من يكبر شأن الوراثة ، كما أن هناك من يكبر شأن الوسط . ولكن هذا البحث أدى إلى نتائج فريدة في اختيار الدراسات العالية والتوجيه الثقافي . فنحن نعرف أن متوسط الذكاء عند الناس هو رقم اصطلاحى نبر عنه بـ ١٠٠ ولكن التفاوت عظيم بين الأبله الذى لا يصل سوى ٢٥ والعبقرى الذى يزيد على ١٥٠ ثم هناك ميول خاصة أو مهارات خاصة في نوع الذكاء يمكن الاستدلال عليها والاسترشاد بها في توجيه الصبي أو الشاب ليس للدراسة فقط ، بل للحرفة .

وقد أوضحت السيكولوجية الحديثة قيمة الحافز الذى يعوض من الذكاء الناقص . وقد ذكرنا مثال الصبي يكره المعلم فيكره المادة التي يدرسها فيتخلف فيها ، والصبي يحب معلمه فيقبل عليه حتى ينبغ في مادته . وقد تأيدت هذه الحقيقة في الحرب الماضية حين جندت الولايات المتحدة الأمريكية شبابها وأرستهم إلى ميادين الحرب في أوروبا . ففى تلك السنين احتاج الآباء الى مراسلة أبنائهم للاطمئنان عليهم ، ولكنهم كانوا أميين من أولئك المهاجرين الذين لم يعنوا بتعلم القراءة والكتابة . على أن الحافز هنا كان قويا ، فتملموا القراءة والكتابة بأسرع مما يتعلم الصبيان مع أنهم كانوا قد تجاوزوا الخمسين والستين .

وهناك مدرسة "السلوكية" التي تقول بأن التفكير كلام صامت . ومع أن التسليم ليس عاما بهذه النظرية فان قيمتها في تعليم اللغات ليست صغيرة . لأننا قد وصلنا إلى الاقتناع بأن التفكير الحسن يعنى اللغة الحسنة ، وأن اللغة العظيمة هى أعظم المؤسسات البشرية . ولذلك كبرت مكانة اللغات في التعليم .

وليس مما يستصغر أن تدلنا السيكولوجية الحديثة على أمثل الطرق للاستذكار . فقد أثبتت أن تلاوة الفصل الكبير تلاوة كاملة في فقرات متباعدة خير في الاستذكار من تجزئته وحفظ كل جزء منه على حده في فقرات قريبة .

ولو شئنا أن نلخص في كلمات قليلة النتائج العظيمة التي اهدت إليها السيكولوجية الحديثة في التربية والتعليم لقلنا إنها تنحصر فيما يلي :

١ - الإكبار العظيم من شأن السنوات الخمس أو الست الأولى في حياة الطفل لأنها من حيث التربية تساوى سائر العمر كله بل قد تزيد عليه .

٢ - قيمة العائلة الحسنة في التوجيه وتكوين الشخصية وغرس الأخلاق .

٣ - معاملة الطفل بالحب .